جولة في مدينة خليجية

من مسقط حكم العمانيون إمبراطورية

سادت معظم الساحل الأفريقي

بقلم: الدكتور مجدي العفيفي

جولة في مدينة خليجية

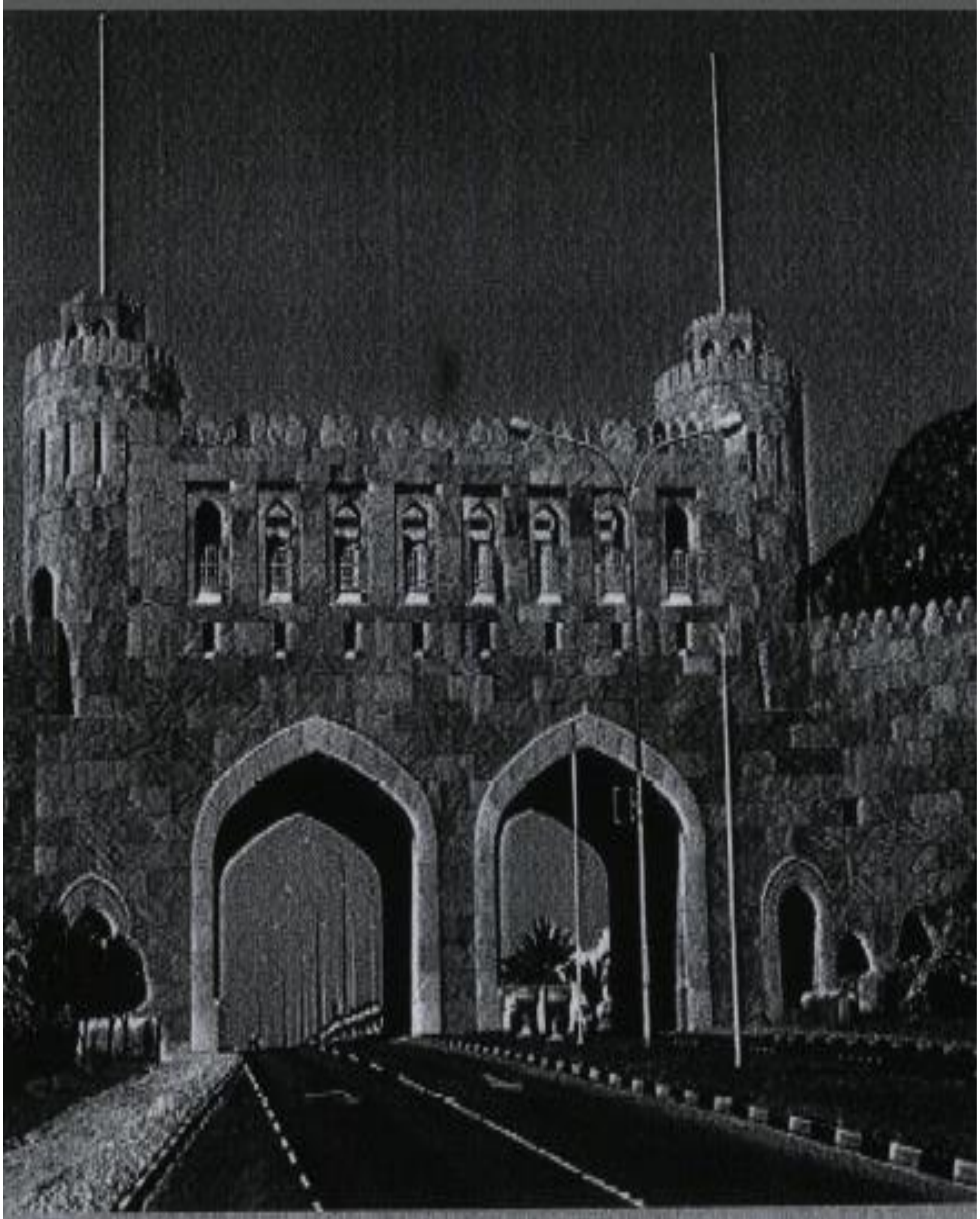
من مسقط

حكم العمانيون امبراطورية

سادت معظم الساحل الأفريقي

بقلم : الدكتور مجدي العفيفي





في عهد سعيد بن سلطان كانت مسقط عاصمة لإمبراطورية تضم مسقط وزنجبار.. ورسخ الوجود العماني أقدامه على الساحل الشرقي لأفريقيا.. وبجيش قوي وأسطول شهير واقتصاد مزدهر نشرت هذه الإمبراطورية الرخاء والازدهار في كل منطقة الساحل الأفريقي في مساحة تمتد من شمال موزمبيق حتى الصومال إضافة إلى المقاطعات الجنوبية في بلاد فارس وبلوشستان وجنوبي غرب آسيا.. وفي هذه السطور نقدم عرضا لتاريخ عاصمة شهيرة وعريقة.

*** تأكيد المستشرقين على أن البرتغال هي السبب في تطور مسقط: خطأ تاريخي فادح**

*** عمان ساهمت على امتداد تاريخها الطويل في صنع الحضارة الإنسانية**

إحساس يسري فيك بأن هذه المدينة جادلها التاريخ أكثر من أيه حاضرة أخرى في الزمن القديم وحاورتها الأيام أكثر من أيه مدينة معاصرة على شاطئ الخليج واتخذت منها الأحداث مسرحا أكثر من أي مسرح آخر في اكتشاف معادن الشعوب.

تتجلى مسقط بشخصيتها التي حدد التاريخ ملامحها على مر العصور أو هي التي شكلت كثيرا من معالم هذا التاريخ في المنطقة على تعاقب الأزمنة باعتبار أن التاريخ هو ظل الإنسان على الأرض.. وأنه قد أوقف عليها رجالا أضافوا إليها الكثير بأعمارهم ومآثرهم. وبالتالي تحركت الجغرافيا حين صارت مسقط مركز الثقل السياسي والاجتماعي والاقتصادي منذ الربع الأخير من القرن الرابع عشر على أساس أن الجغرافيا هي ظل الأرض على الزمان.

واحتفظ التاريخ لمسقط في ذاكرته بصفحات من أسفار المؤرخين تجاوزت مجرد الإشارات لتصير أكثر تحديقا وتوصيفا لمسقط التي تعد مسرحا لكثير من الحوادث والأحداث والعديد من التحولات الكبرى في تاريخ عمان بل في تاريخ المنطقة البعيد منه والمنظور حتى لتعتبر مسقط صاحبة أطول تاريخ من حيث كونها العاصمة دون المدن العمانية التي تنقلت فيها العاصمة كمبنى ومعنى.

هنا مسقط...؟! لكن عن أي مسقط تتحدث وتتساءل؟ أتريد مسقط المدينة ذات الخمسة كيلو مترات حدودا ؟

أم تريد مسقط المحافظة ذات الولايات الست ؟ ثم أيه وجهة أنت موليها في مسقط العاصمة والسياسة والتاريخ والجغرافيا والمعنى والمبنى والسياحة والجمال والاقتصاد والبحر والتكنولوجيا والفلكلور والناس والإنسان والحاضر والحضارة.

ثم من أي باب تود الولوج إليها؟ أتدخل غلافها الأرضي.. وأنت القادم من مطار السيب الدولي، عبر شارع السلطان قابوس الذي يشكل شريانا يتدفق بالحركة ليل نهار، ليفضي بك إلى أكثر من طريق، وأكثر من خط في شبكة المواصلات التي تحتوي مسقط، كما تحتوي كل عمان، حتى أن تعبيرا مثل (المناطق النائية) قد أصبح في عداد الأشياء المفقودة، وما أجله من فقدان؟.

أتخطو إليها من كورنيش (مطرح) الذي تستلقي عليه تشكيلات جمالية تتمهل الخطى، وتمهل كل ما يحول بينك وبين الاستمتاع باللامحدود، ساعة أن تستغرقك نظرة البحر وصفحة المحيط؟.

أم تود الدخول إليها من الجبال الشاهقة بالوادي الكبير، بكل ما فيها من صلابة وصلادة، وتوحش وعناد، وقد أصبحت مستأنسة بعد أن أسلست قيادها طوعا وكرها، وسلمت أمرها للإرادة الإنسانية،

واستسلمت لمقدرتها على تسخير التكنولوجيا للجولوجيا ,وهل مثل فندق قصر البستان ,أحد أكبر عشرة فنادق في العالم، مثال يقف شاهدا حيا على مهادنة قلب الجبل ليرق ويتلطف؟.

أم تدلف إليها منسلا من بين ضجيج التكنولوجيا والإلكترونيات في الحي التجاري، الذي يئز بالبنوك والأوراق المالية، وينز بالحركة الاقتصادية ,ويتجمل بالأسواق التقليدية ,ويبرق بالمراكز التسويقية الحديثة، ويحتوي الجنسيات المتعددة والمتباينة، حتى لتشعر أنك في منطقة عالمية: الناس بما في أياديهم، وأزيائهم، واتجاهاتهم وميولهم وألوانهم، وأصدائهم وكل منهم لابد وأن وراءه قصة، وأن في نفسه حكاية، وأن بداخله أشواقا وعذابات.

شخصية مسقط

أينما وجهت وجهك في مسقط، وأرسلت البصر هنا وهناك، ستتناظر عيونك جملة تحسها وتستشعرها، وتظل تتهامس بها "أنت في عاصمة عصرية أصيلة" بكل الظلال التي تلقيها هذه العبارة المتمثلة في تشكيلات حاضرة ومتنوعة، وأشكال حضارية متباينة، دولة لا تحبس نفسها في غرفة القديم، ولا تهرول في شارع الحديث.

إذا كنت تبحث عن المدينة (المودرن) فإنها مثل كل المدن في الدنيا، فيها كل ما يجعل العالم بين يديك، وعند أطراف أصابعك، ربما تبدو الدهشة من كون هذه المدينة بردائها الحديث، قد اختصرت الزمن في غضون سنوات معدودات، لتلتحم من جديد بسفينة التقدم وركب التطور، وتلتئم جراحها وهي التي نزفت طويلا، لكنها تجاوزت هذه النظرة لتستقر على شاطئ العطاء.

أما إذا كنت تؤثر الخصوصية، وتريد التميز في البحث عن شخصية المدن، فتعال إلى المسافة المتحركة في مدينة مسقط، بين الحاضر والحضارة.

حين تتحرك في جنبات مسقط يمكنك أن تتسمع صوت التاريخ بنفسك، ويحدثك هو عن نفسه، مثلما يحاورك الحاضر وتتبادل معه الحوار الحي، هذا ملمح قديم يعانق ملمحا حديثا، وذلك حي عريق يبدأ بومضة معاصرة، أما ذلك فميدان أبدعته اليد الحديثة، لكن بداخله شيء من الماضي البعيد، ومن ثم تشعر بالحيرة الجميلة، من أين تبدأ حركتك في مسقط عاصمة سلطنة عمان، ومفتاحها المسكون بالتجليات، ورمزها المشحون بالدلالات.

فيها التاريخ المنظور وسطوره التي تمد الحاضر بقوة تدفع إلى الغد. فيها الحضارة التي تتحدث عن نفسها بشواهدها ومشاهدها، فيها السياسة التي هي فن تحريك الجبال، والتي تتجلى بالرؤية والرؤيا. فيها رحيق الأصالة تمتد موجاته لتذوب فى عبير الآن ,وتمتد إلى الآتى .فيها الجديد يتجاور مع القديم ويتحاور، فإذا النفس تصغي إلى سيمفونية من الفعل البشري الإرادي. فيها التحديث ومعالمه، والعصرنة وعوالمها، والعمران ومتطلباته، ويده التي تكحل عيون المدينة بتشكيلات جمالية لا تخطف الأبصار إنما تريح هذه الأبصار . فيها.. وفيها.. وفيها.

أول مشهد في العيون

لحظة أن تخبرك المضيفة بأن الطائرة تحلق الآن في الأجواء العمانية، وقبيل أن تهبط في مطار مسقط الدولي، تلتقط عيونك إذ كان الوقت نهارا مجموعة من سلاسل الجبال التي تتماوج مع حركة الطائرة، أو تبرق

في ناظريك، إذا كان الوقت ليلا، موجات من الضوء المنبعث من مسقط: المدينة التي تشكل موجة دافئة في حضن الخليج.

في تلك اللحظات يمكن أن ترنو من النافذة لكي تملأ مقلتيك أيضا بباقتين من النور. قل هما مصباحان يتدليان من مشكاتين ما بين شروق حدود مسقط من ناحية البحر، وغروب حدودها بولاية السيب. قل هما جناحان منخفضان بالجنان والمودة، لينشروا الخير والرحمة. قل هما عينان تجريان بالعناية والرعاية والهداية، تسهران على أمن الناس وتحرسان أمانهم، إنهما (قصر العلم بمسقط) و(بيت البركة بالسيب) اللذان يدير منهما جلالة السلطان شئون الحكم والدولة، تحفتان من المعمار والعمار، تزينان العاصمة فتزدان ألقاً وتزداد رونقا، قطعتان من الجمال والجلال، يلفان مسقط بخيوط من حرير، ويشدانها بخطوط من حنان.

(نحن الآن على وشك الهبوط في مطار مسقط الدولي) تنساب هذه العبارة من مضيفة الطائرة وهي تهيئ الزائرين الذين في قلوبهم شوق لرؤية سلطنة عمان، سواء كانوا سائحين، أو رجال أعمال أو زائرين، أو لهم مصالح مشتركة ، ومن مختلف الجنسيات. ما أن تنتهي الإجراءات في بضع دقائق، حتى يجد الضيف نفسه أمام باقة من التشكيلات الجمالية تفوح من جنبات مطار مسقط الدولي، واجهة عمان العصرية، وهو أول مشهد عماني تقع عليه العيون، وهو أيضا آخر مشهد عماني تودعه تلك العيون، ومن ثم تجد التبسيط في التسهيلات وتحس بالبساطة في الإجراءات، على درجة عالية من درجات الجودة والنظام في الشكل والمضمون، من حيث الأناقة في السلوك، وحسن استقبال الضيوف، ومنظومة الخدمات الراقية التي تعبق بها أجواء المطار، وقد حق له أن يحقق المركز الثالث على مستوى مطارات العالم عام 1999 من ناحية تحسين الخدمات والتنسيق بين الجهات المعنية، وتدريب الموظفين، وارتفاع كفاءة الأداء وجاء هذا الفوز من قبل استطلاع عالمي أجري عام

1996 مطارا من مطارات العالم من خلال 77 ألف مسافر دولي، أسفر عن تصنيف مطار السيب الدولي كثالث أحسن مطار في العالم بعد مطار (ديسلدورف، بألمانيا) ومطار (ميامي، بالولايات المتحدة الأمريكية) وفي المركز الرابع جاء مطار (سياتل الأمريكي) ثم مطار (أوزاكا باليابان) في المركز الخامس (جريدة السياسة، 20 يوليو 1990، الكويت)

حين تلقي نظرة من إحدى شرفات مطار مسقط الدولي، يرتد إليه البصر مجمعا تشكيلا جماليا ومعلوماتيا، عن أسرار اختيار هذا المكان ليكون واجهة عمانية عصرية، بمعنى أن المطار يشرف على مفترق الطرق، أو الشرايين الرئيسية التي تتوزع منها الحركة على كافة ولايات ومناطق السلطنة.

هذا طريق يؤدي إلى ساحل (الباطنة) ابتداء من ولاية (السيب) التي اتخذ المطار منها اسما له، لتنتهي أطراف الطريق عند حدود دولة الإمارات العربية المتحدة، أما هذا الطريق فيسافر بك إلى داخل عمان ليلف ويدور في منطقة (الظاهرية) و(المنطقة الداخلية) ليتماس مع شبكة الطرق المؤدية إلى (المنطقة الشرقية)، لكن هذا الطريق ذا الألف كيلومتر، يحملك على جناحه إلى محافظة ظفار في غضون ساعات معدودات ليباشر طريقتين، أحدهما إلى الجمهورية العربية اليمنية، والآخر إلى المملكة العربية السعودية. ثم إن المطار يطل على مجموعة من الصروح والمباني ذات المعاني الكبيرة مثل مجلس الشورى وفندق السيب نوفوتيل ومركز عمان الدولي للمعارض وبرج الصحوة الذي يرمز إلى النهضة العمانية في عنفوانها المستمر.

من المؤكد أن موقع مطار مسقط الدولي، إنما هو مكان فريد جرى استثماره في سياق الرؤية الإستراتيجية للموقع الجغرافي المتميز للسلطنة، الذي يتناغم مع مكانتها على الخريطة الدولية قديما وحديثا. ولحظة أن تغادر أرض المطار، وتبتعد عن أزيز الطائرات في الأجواء العمانية، فإذا بالصدر يطلق تنهيدة إعجاب بأجواء السيب

الصافية، ببساتينها وحدائقها، واتساعها وامتدادها، ومبانيها التي تأبى الارتفاع، فتؤثر الانبساط، وتميل إلى اللون الأبيض، ليعانق اللون الأخضر في معزوفة من الجمال البريء، والتاريخ الثقافي العريق، الذي يتجاوز مع عراقة مدينة مسقط، التي تبعد عنها في المسافة ثلاثين ميلا، وفي الوقت عشرين دقيقة.

لأن المدن مثل الناس

لنقطع هذه المسافة الآن بسرعة مؤقتة، وعيون الكاميرا تتوهج بالتقاط المشاهد، وانتخاب الشواهد، واختزانها تحت أهداب العيون التي في طرفها شوق للقاء قلب مدينة من المدن الكبيرة التي تتورط في حبها، وللمدن قلوب تبادلك المشاعر والأحاسيس، فالمدن مثل الناس، تولد لنجم ساطع، أو تولد لنجم خاب، وتولد للشقاء والعناء، فإذا هي في القمة، أو إذا هي في القاع، وإذا هي تعرف الشرف والسؤدد، أو هي تتعرض للمهانة والعذاب، ولكنها أيضا كالناس إن صدق معدنهم صدقوا، وإن كان معدنهم زيفا اندثروا، مهما تألق وجودهم للحظات، ومهما أحدثوا من ضجة وأثاروا الاهتمام، لا يستمرون إلا إلى حين، ثم إذا هي صفحة من وجود انطوى بخيره وشره، لا يعاد لها نشر أو إحياء. وكم من مدن تألقت فى عصر وازدهرت ثم اندثرت تماما إلى لا عودة , وكم من مدن سميت بالمدن الأشباح، شهدت الثروة والجاه والمجد، وامتلأت بيوتها وأزقتها بالأطماع والطموحات والعنف، ثم لم تبق منها إلا أطلال تحكي أن حياة كانت هناك، وأن حياة انسحبت من هنا إلى الأبد، (فاروق خورشيد، في بلاد السندباد، ص139، دار الهلال، القاهرة 1986م)

للمدينة وجودها على خريطة الفكر الإنساني، ولها مساحتها من الاهتمام العلمي والعملي، حتى ليعتبرها الباحثون مرآة تعكس علاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه، وقد عاصرت كل المدنيات التي ظهرت على وجه البسيطة، منذ أن عرف الإنسان الاستقرار، وأدرك معنى التوطن، ووعى مفهوم وشكل المدينة في بساطتها أو

تشابكها، ولكن اللافت للنظر هو أن الناس قد ذهبوا وواراهم الثرى كل حسب مقدار انجازه، وظلت المدينة شاخصة في وجدان الإنسان، وماثلة في ضمير الأجيال تروي تاريخهم (سعيد بن محمد الصقلاوي، ثقافة المدينة، المنتدى الأدبي، مسقط 2001م)

وقد شغلت المدينة، أي مدينة، منذ أقدم العصور حيزا كبيرا من الإبداع الأدبي، شعرا ونثرا، واحتلت موقعا متميزا في بؤرة الاهتمام العلمي والجغرافي والهندسي، فكل الأعمال العظيمة مثل (ملحمة جلجاش البابلية) و(إلياذة هوميروس الإغريقية) و(الشاهنامة الفارسية) و(ألف ليلة وليلة العربية) حتى الأعمال الروائية المعاصرة مثل (بين مدينتين لتشارلز ديكنز) ومعظم روايات (نجيب محفوظ خاصة الثلاثية) ثم (مدن الملح لعبد الرحمن منيف) وغيرها من القصص والروايات في الآداب الإنسانية، وحتى في القصائد ذات الصوت الواحد في العصور المختلفة، حملت أحداثها ملامح المدينة التي نشأت فيها حضاريا وثقافيا واجتماعيا. وقد نقلت إلينا كتب الأدب العربي وموسوعاته المختلفة صورا متعددة لمظاهر الحضارة العربية في بدوها وحضرها، وفي قراها ومدنها، وفي بلدانها وأقاليمها، وفي سواحلها وعمقها البري. ويكفي المرء نظرة إلى كتاب (الأغاني لأبي فرج الأصفهاني) و(الأماني للقالي) و(العقد الفريد لابن عبد ربه) و(الكامل في الأدب للمبرد) وغيرها من مراجع التاريخ الأدبي ليتعرف على أحوال المدينة العربية من وجهة النظر الأدبية، فالشعراء العرب منذ (امرئ القيس) في الجاهلية، ومرورا بـ (أبي نواس) و(ابن الرومي) وشعراء الصوفية في العصر العباسي، وتعريجا على (ابن حمديس) و(ابن زيدون) في العصر النابلسي، وصولا إلى شعرنا المعاصر من (أحمد شوقي) وحتى (أدونيس) و(نزار قباني) وغيرهم، لم يدخروا وسعا في رسم صورة ثقافة المدينة العربي والتي هي في الواقع نتاج الفكر والعقل الإنساني في هذا المحيط.

واهتم المؤرخون بالمدينة منذ (هيرودوت) مرورا بالمؤرخين العرب مثل (ابن الأثير) و(المسعودي) ووصولا إلى أشهر مؤرخي أوروبا (أرنولد توينبي) قد تناولوا المدينة من حيث تاريخها، مبرزين فعل العقل الإنساني في مسيرة حركة تطوره السياسي والمدني ، وظلت المدينة منذ (بطليموس) و(بلليني) في العصور الغابرة، ومرورا بالجغرافيين العرب مثل (الاصطخري) و(ابن حوقل) و(الهمذاني) و(الإدريسي) وغيرهم في العصور الوسطى، ووصولا إلى العصور الحديثة مثل (لويس مفرد) في كتابه تاريخ المدن، و(جمال حمدان) في جغرافية المدن، وغيرهم كثير ممن كان لهم دور فاعل في إثراء الإضاءات العلمية حول المدينة من الناحية الجغرافية والمكانية والتاريخية، وغيرها من الأمور المتعلقة بمسيرتها وتشكيلها.

وفي المدينة تحديقات فلسفية عميقة منذ (أرسطو) و(أفلاطون) مرورا بفلاسفة المسلمين والعرب مثل (الفارابي) في مدينته الفاضلة، و(ابن خلدون) في فلسفته عن العمران، التي أوضحها في (المقدمة)، ثم فلاسفة العصر الحديث، وهو كثر، من الأوروبيين والمسلمين والعرب وغيرهم من الأمم. واهتم مخططو المدن ومهندسوا العمارة، بالمدينة وأنماط الحياة، وتأثيرها على هندستها المعمارية منذ الفراعنة، مرورا بالعصور الوسطى، وظهرت فلسفات متعددة دارت حولها تخطيطات المدن، وجعلت أبنيتها الملامح المعمارية لها، فنرى المدينة الإسلامية الأولى في بساطتها، مثل يثرب ومكة، والمدينة الإسلامية أكثر تشابكا كبغداد والبصرة والموصل ودمشق، ثم الطرز المعمارية التي حملت تواريخ حقب ودويلات مختلفة كالطراز الفاطمي والمملوكي والأندلسي. وفي أوروبا أيضا بدأت المدينة وليدة الحضارة الإغريقية فالرومانية، فمدن العصور الوسطى التي مثلتها عمارة عصر البارود، فالمدن الصناعية الأولى في العصر الحديث وغيرها من المدن التي ظهرت في القرن العشرين، وكانت نتاج ثقافات وفلسفات ونظريات عديدة.

ولم ينس علماء الاقتصاد دورهم في هذا المضمار فتعاملوا مع المدينة مرة بشكل كلي ومرة بشكل جزئي، فمن الناحية الكلية تبنوا ما عرف باقتصاديات المدينة، ومن الناحية الجزئية تبنوا ما عرف باقتصاديات القطاع، كالقطاع الإسكاني والقطاع السياحي، والقطاع الصناعي وما شابه ذلك، كما شارك علماء الصحة والبيئة في موضوع المدينة، فخصصوا دراساتهم وركزوها على بيئات المدن، وصنفوا نتائجهم تبعا لما تحمله كل مدينة من مظاهر الصحة البيئية، ووضعوا الخطط التنفيذية لمعالجتها أو تنميتها.

وإذا كان للمؤرخين والجغرافيين من دور بارز في موضوع المدينة، فإن دور الآثاريين يزداد أهمية فيما يقدمونه من نتائج علمية، تضيء كثيرا من الجوانب التي رواها المؤرخون، وتناقش القضايا التي طرحت حول موضوع المدينة في عصورها المختلفة، وبفضل جهودهم تعرفنا على حضارات وثقافات بعض المدن العمانية القديمة مثل (أوبار وسمهرم والبليد في محافظة ظفار) و(صحار في منطقة الباطنة) و(بات في منطقة الظاهرة) وبعض المستوطنات السكنية في (سند ووادي نام في المنطقة الشرقية) التي يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد. وتناول المشتغلون بالمدينة جوانبها المتعددة والمختلفة، بعضهم اتخذ اتجاها عاما، وبعضهم ركز على الجزيئات التفصيلية، والنظر إلى المدينة من سماتها المختلفة كالسمات الثقافية والحضارية والفنية والمعمارية، أو موقعها الجغرافي أو بيئتها، أو نشاطاتها السياسية والاقتصادية والتنظيمية، مما أظهر أنواعا من المدن تنسب إلى أوضاعها، أو سماته، أو أنشطتها أو نظمها، فظهرت المدن الرأسمالية والمدن الاشتراكية والمدن الصناعية ومدن البترول والمدن العسكرية، ووسمت بعضها بمدينة الثقافة كباريس، ومدينة السينما كهوليوود ومدينة الفنون التشكيلية كروما، والمدن الدينية بالنسبة للمسلمين مثل مكة والمدينة المنورة والقدس، ومدينة الألف مئذنة مثل القاهرة ,وبالنسبة للمسيحيين مثل الفاتيكان ,كذلك الحال بالنسبة لعمان، حيث عرفت نزوى بجانب دورها السياسي بمدينة العلم، وصور بمدينة الشراع، وظفار ببلاد اللبان.

طلاقة وانطلاقة

تجربتي التي تحلق في فضاءات مسقط، توحي إلى أن أتحرك من اللحظة الآنية، وأنا أستند إلى جدار التاريخ، وأبدأ الخطورة الأولى من مسقط (المدينة) مرورا بمسقط (العاصمة) سعيا إلى مسقط (المحافظة) بجباتها الست المعلقة في جيدها المصاغ برقة ودقة أنامل النهضة الحديثة.

ربما تشدك شواهد الحاضر ومشاهدة في مسقط، إلى درجة قد لا تستطيع التحديق الكامل في تاريخها، كما ينبغي أن يكون التحديق، أو أن تمعن النظر باستفاضة في سيرة ومسيرة هذه المدينة، ولكن ما الذي يمنعنا أن نمارس هذا التألم التاريخي، لاسيما أن القلم قد تجاوز مرحلة النظرة الأولى، ليتخذ موقف الألفة؟.

الانطلاقة من البوابة.. فأما البوابة فهي بوابة مسقط، تلك التي لها مع الأيام جولات، ولها مع المكان حكايات، ولها مع الناس قصص وروايات، لكن هذه الحكايات والقصص والروايات، أمست في إطار (يحكى أن) وباتت في سياق (كان يا ما كان) لماذا؟.

لقد أضحت بوابة مسقط رمزا جديدا لعمان الحديثة، فقادة العالم والحكام الذين يزورون السلطنة، لابد أن يمروا عبر هذه البوابة، التي تؤدي إلى (قصر العلم) مقر الحكم والبلاط وكرسي السياسة والقرار.

هذه البوابة التي كانت رمز ظلام وإظلام، صارت نقطة طلاقة وانطلاق، والبوابة التي كان من يصل إليها بعد غروب الشمس يظل خارجها حتى الصباح، ومن يرغب في الخروج منها وقد أغلقت أبوابها، يمكث فلا يفكر إلا ليبيت مع شحوب السراج الذي ينطفئ زيته، وإن لم ينطفئ قلب حامله. هذه البوابة بكل ظلمها وإظلامها، أصبحت شعلة تفتح، وومضة انفتاح، وصباحا لا يعترف كثيرا بالليل، وكم كان الليل طويلا وثقيلا،

بل كان أطول وأعنف وأثقل من ليل (امرئ القيس) الذي كان كموج البحر أرخى سدولة عليه بأنواع الهموم ليبتلي

البوابة الآن تشكيل جمالي عصري، تبرق فيه لمحات العمارة العمانية، علو وارتفاع وأناقة، بعد أن كانت شيئا ثقيلا على النفس، يقبض على القلب فلا ينبسط، ومن يخترق يحترق. ثم تغير المعنى والمبنى، واستدار 180 درجة، مثلما استدار كل شيء إلى النور والخير والجمال، وصارت البوابة العتيقة، طلاقة مع انطلاقة، ورحابة فيها مهابة، وتكوينا طبيعيا بديعيا.

الجبل .. بكبريائه وارتفاعه، تتناثر على شفاهه بعض الآثار التي لا تزال عالقة به، وكأنها جزء من تشكيلاته، تحدثك وتقص عليك حوادث وأحداثا. البحر.. بامتداده واتساعه، ومده وجزره، وفلكه وسفينه، وأعلامه وجواريه المنشآت، يغري على التحديق والتحليق. الشاطئ.. بطوله وعرضه، واخضراره وازدهاره، وأسراره وآثاره، يناديك ويستهويك، وفي الليل يناجيك، وإن بحت بسرك يحتويك. والسماء.. التي لا تعرف الغيوم، وإن رأتها صهرتها، قبل أن يرتد الطرف. والسحاب.. الذي لا يجرؤ على المكوث فيها إلا مقدار غمضة عين وانتباهتها. والهدوء.. الذي يغلف المكان بمسحة من السكينة، تفضي إلى الطمأنينة. وكان التتويج لكل ذلك بمتحف بوابة مسقط الذي أقيم فوق هذه البوابة العتيقة ليجمع كثيرا من الرموز التاريخية، وفيضا من الشواهد البيئية، ومنتخبات من المشاهد الحضارية.

مشاهدة عينية وفؤادية

لعل من أبلغ الصور التي تتجلى فيها المشاهد الفؤادية، وتتجادل معها الشهادة الحضورية، تلك الصورة التي اقتطعها الكاتب الصحفي حمود بن سالم السيابي من ذاته، وقد قدح زناد ذاكرته، ورسمها لوحة مسكونة بالمصداقية، مشحونة بالشفافية (حمود بن سالم السيابي، مؤسسة عمان للصحافة والنشر والأنباء، دورية مسقط 1990)، كان الدخول إلى مسقط برسوم والخروج منها بتأشيرة بين القلعة والقلعة كانت هناك قلعة.. واحدة تبث الطمأنينة وأخرى تشيع الخوف، وثالثة ترصد الحالات الاستثنائية بين اليأس والرجاء، وبين كل سور وسور كان هناك سور واحد يفصل، وآخر يمنع، وثالث يرقب العابرين أسوار الفصل والمنع، وبين التاريخ المرعب بقلاعه وأسواره، كان هناك الواقع الوادع بخيامه المسمرة بأوتاد الحذر والترقب، فبين كل خيمة وخيمة كانت هناك خيمة واحدة نصف أهلها في الغربة، والثانية نجح نصف أهلها في الحصول على إذن بالهرب، وثالثة يمارس أهلها فن الرهان على النهايات، وقد أبقوا كافة الخيارات مفتوحة.

ومسقط ومطرح مدينتان تكبران في التاريخ وربما كان لهمل كل الحق.. فكل ما كان بهما متصل بالقراءة التاريخية لا بحياة الناس.. فالمدن التي تتعانق قلاعها ويتبادل جنودها آخر الحكايات وآخر الحوادث، صممت ليعشش فيها التاريخ، لا ليكتب فيها الإنسان الأماني، فهي مدن تألقت مع السواد الفاحم للون المدفع.. والسواد الأكثر قتامة للون البارود.. وهي مدن لم تفسح المجال لضحكة طفل.. ولا مكانا لمهد طفل تمارس بقربه أمه نشر مواويل العاطفة الدافئة، وقد جاء حمود السيابي إلى مسقط ومطرح في الستينات، قادما من الريف البريء المسطح، إلى عاصمة الريف بكل ما في هذه العاصمة من هيبة وجبروت و" لأنني قادم إلى مدينة مرهونة للتاريخ العظيم اسما ومكانا ومكانة، كان الدخول إلى المدينة كالدخول إلى متحف الآن يسبقه قطع

تذكرة الدخول، وهذا ما يفعله كل العمانيين عند فرضة الوطية (مستشفى النهضة حاليا) كان عبد الله المعوشري، والأول اسمه الحقيقي، والثاني وظيفته، وليس قبيلته، يقتطع من العماني ثمن رؤية مدينته المريخية، بقلاعها و (أوتيللاتها) وضوضاء الحمالين في الشواطئ الحزينة التي تسمى اصطلاحا أرصفة الميناء في حين أن السفن لا تجرؤ على الاقتراب منها، فغاطسها أكبر من المسافة الزرقاء الصغيرة لعمق هذه الأرصفة، إذ يكتفي مركب (دامرا) بمغازلة الشاطئ من بعيد. أما مركب (دواركا) فيلهب أسماع المدينة ببوقه، فتنتفض إليه المدينة كلها محمولة على قواربها الصغيرة. ثم تتواصل المدينة بعد ذلك شحيحة بخيلة وهي تعرض نفسها أمام ناظريك، خيمة تلو خيمة، ففراغ تلو فراغ، ويستلمك لأول مرة الطريق الموصوف بالإسمنت الممتد على أكثر من خمسة كيلومترات، وهو طول مفزع ومرعب يتناوله العمانيون كأحد أعاجيب ذلك الزمان الأعجوبة، وقد افتتح في احتفال مهيب عام 1920م ويعيد الشريط لفته، ولا نرى مسقط ومطرح قبل عام (1970) إلا "عبارات ملفوفة في كتاب تاريخي، صادفناهما على تقاطعات دروب الزمن البعيد.. وسمعناها قصائد شاعر لا تستهويه الجغرافيا، بقدر ما يستهويه صناع التاريخ، وعشنا المدينتين قبل عام 70 زوايا يترنح التاريخ في خيامها وطرقاتها المتغفرة بالفقر، ورغم ذلك كان العمانيون يشعرون لدى زيارتهما للمدينتين، بأنهم يزورون المريخ، وكان امتلاك خيمة تحت سماء مسقط وبجوار "دروازة" مطرح، كامتلاك قصر على الريفيرا، يأتي العماني من ريفه البريء حيث كل شيء بالمجان، بدءا بقهوة الصباح في السبة، إلى مسقط ومطرح، فيفاجأ أن قربة الماء تباع في جحلة بأنتين، ورزمة الحطب بروبيتين، وفنجان القهوة ليطوف بها الساقي الأزقة والطرقات بأنة واحدة، وإذا ما أوى الليل فعليه أن يكتري ركنا في إحدى خيام الشجيعية، وإذا ما أفلس يتوجب عليه افتراش رصيف مستشفى طومس، ومع ذلك فإنه يعتبر كل هذه المعاناة تهون في رؤية مدينة بحجم مطرح وفي رؤية مدينة بغموض مسقط.

وعلى مرآة الذاكرة نشاهد هذا الملمح، وبين جو حار خانق تقترب فيه الحرارة من الخمسين مئوية، وبين رجال يفترشون التكايا في المقاهي يحتسون الشاي الحار فى عز الظهر، لتقف أمام الناس فلسفة مسقطية لا تعرف أبعادها بعد، يطفئون الحرارة بالحرارة، كما نمارس في الريف تخفيف الألم بالكي، ويحرثون الزمان بلعبة الحواليس، وهي لعبة السقوط من حفرة إلى حفرة لتكون حصيلة السقوط المتواصل حفنة حجارة، ترمى في النهاية في الحفرة الأخيرة، ليكون مقتل الخصم فقرة من حجارته، وحين يأتي الليل تفترش المدينتان السطوح صيفا، تسامر طبلات النوبة، تدق في الذاكرة، وتحكي عن أناس ينامون بـ (الريموت كنترول) وعن أناس عرفوا قانون الطوارئ قبل أن يكون هناك قانون، وعرفوا حظر التجول قبل أن يعلن هؤلاء الناس عن رغبة في التجول فعلا، وتقفل المدينة بواباتها، وتستريح قريرة العين خلف أسوارها، فقد نام الناس ونام التاريخ، ودخل الكل في حلم هامشه محدود جدا، وتنازعتهم الأماني البريئة.

ونعود نقرأ في سطور مسقط القديمة، الخطوات المتبعة لشبح الأيام، هذا باب مسقط، وهناك يتربع الجمادار الأشكران، بورقة من يده تسافر إلى داخل عمان، وبممانعة منه تستضيفك مسقط إجباريا، ذهب الجمادار وتوارى ككل حزمات الضيم يبددها الفجر ويلغيها، على أنه تتوجب الإشارة إلى أن التقليب في ماضي مسقط ومطرح ليس تقليبا في مواجع الجرح، بل تحسسا للبدايات كيف انطلقت ورصيدا لشباب النهضة كيف نما وترعرع، وتشخيصا للحالة الصحية لمدينة متعافية من خلال ملف الحالة العلاجي المودع في متحف الأمس.

نقلتان عظيمتان في تاريخ مسقط

أحدثت مسقط نقلتين عظيمتين في تاريخ عمان المعاصر، وفي كل نقلة كانت التحولات جد هائلة على كل المستويات. فأما النقلة الأولى فقد تمت عندما انتقلت العاصمة العمانية من الرستاق إلى مسقط، في عهد حمد بن سعيد (عام 1779 - 1792م) حفيد الإمام أحمد بن سعيد مؤسس الدولة البوسعيدية، وصارت مسقط هي العاصمة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وبالتالي صار لعمان قوة بحرية ضاربة، حتى أن المؤرخين أجمعوا على أن نفوذ مسقط في الخليج نفوذ غير منازع. وهنا تفتح مفكرة التاريخ صفحة تحتفظ بها للرمز عماني كبير هو السيد سعيد بن أحمد، الذي تولى الحكم (1219 - 1273هـ / 1804 - 1856م) وفي عهده كانت الدولة العمانية، دولة ملاحية كبيرة تمتد ممتلكاتها من سواحل عمان إلى جزيرة بمبا (الجزيرة الخضراء) وزنجبار على الساحل الشرقي لأفريقيا، إلى منطقة الساحل نفسه في أفريقيا، وهي التي تحيط بممباسا ودار السلام، وتمتد من شمال موزمبيق حتى الصومال، (عمان في التاريخ، ص301، وزارة الإعلام، مسقط 1995م) ويشهد التاريخ من بعده للسيد سعيد بن سلطان، أنه كان واحدا من أبرز حكام تلك الفترة، وقد أصبحت مسقط في عهده مركزا اقتصاديا هاما، ومحطة عبور، وتجمعا تجاريا كبيرا في منطقة الخليج، فقد تمكن الرجل من دعم الاستقرار ونشر الرخاء في البلاد وتكوين جيش قوي، وأسطول بحري مجهز بكافة المعدات والأسلحة، مما دعم أركان الدولة، ووسع رقعتها حتى أصبحت إمبراطورية في زنجبار وبعض أجزاء من شرق أفريقيا، بالإضافة إلى المقاطعات الجنوبية من بلاد فارس، وبلوشستان في جنوبي غرب آسيا، ولكن بعد كل هذا المد والامتداد في آفاق العلاقات العمانية مع العالم، توالت على عمان فترات تراوحت بين القوة والضعف، إثر وفاة السيد سعيد بن سلطان في التاسع عشر من شهر أكتوبر من عام 1856م.

حتى إذا جاء عام 1970م

كانت النقلة الحضارية الثانية لمسقط، على يد جلالة السلطان قابوس بن سعيد، الذي نقل عمان إلى مصاف الدول العصرية، وعادت "مسقط" ك "عاصمة" و"مدينة" إلى قلب العصر والأحداث، بحضارتها التي تتحدث عن نفسها، وحاضرها المضفر بروح الحداثة، والمظفر بالإقلاع المتواصل نحو المستقبل، وبسياستها التي تتسم بالعقلانية، وتتوسم الدبلوماسية الهادئة، وبتاريخها القريب والبعيد، وبمعاملها العريقة وملامحها المعاصرة.

تتطور مسقط باستمرار، وتأخذ بأسباب التطور من داخل الذات نفسها، ذلك أن مسقط لا تتغير، لكنها تتطور حسب معطيات الحقبة التي تمر بها، وحسب ما تقتضيه الضرورة، وتستوجبه الصيرورة، وبما يعود بالإضافة والإضفاء على الزمان والمكان والإنسان في عمان. ومن هنا تنبع عبقرية المكان في مسقط التي تتأثر بالإنسان وتؤثر فيه، وتتبادل معه الأخذ والعطاء.

ساعة أن انسكب أول بث من فجر عمان الحديث، وانسابت خيوطه، من تجليات فكر جلالة السلطان قابوس بن سعيد، فإذا الدنيا في عمان تسعى إلى التغيير والتطوير، وتناسب الأضواء رويدا رويدا، لتتحول إلى شلالات من نور ونار،نور يفيض على الحياة في عمان كلها، ونار ظلت بعض الوقت تصهر قيود العزلة، وتفك إسار الحصار الذي كان مفروضا، بفعل ظروف معينة تلاشت بزوال مسبباتها، وكانت مسقط نقطة الارتكاز.

التاريخ يصحح مغالطاته

ترتسم على جبين مسقط ملامح وخطوط، تغري الكثيرين على قراءتها، واستنباط معالم شخصيتها، خاصة وأنها مدينة جرى بينها وبين التاريخ حوار، بل حوارات، على تعاقب العصور وتوالى الأزمان، تعرضت فيها الكثير من محاولات النيل منها، فما لانت ولا استكانت، بل صدمت في وجه الزمن ومتغيراته، لتسقط مسقط كل المحاولات ،وتظل هي، وتتوارى الأحداث، ويهوى الطامعون في جب التاريخ ولا يتبقى من آثارهم إلا أطلال على سفوح الجغرافيا، ورسومات على جدران التاريخ، تشهد بأن مسقط مدينة حية، تحمل مقومات بقائها في ذاتها، وعناصر استمرارها في داخلها.

إنها مدينة عرفت التاريخ، وتعرف هو عليها منذ عصوره السحيقة، وسعى إليها لتضمها منظومة المدن ذات المد الحضاري والمدى التاريخي، والعمق الإنساني، صنع فيها أحداثه أحيانا، وصاغت هي أحداثه، ومن ثم تنتفي تلك المغالطة التي يقع فيها بعض المؤرخين خاصة المستشرقين، حين يعتبرون أن مسقط لم تدخل التاريخ بقوة إلا بعد الاحتلال البرتغالي لها في القرن السادس عشر الميلادي.

مثل هذه المغالطة أتت ضمن مجموعة من المغالطات التاريخية التي ارتكبها الباحثون، والغربيون بالذات، في الكتابة عن تاريخ المنطقة العربية ككل، في تلك الآونة من التاريخ، حيث تتجهم رؤيتهم بالاستغلال، وتتهجم بالإحساس بالتفوق، فصاغوا كتاباتهم من أهوائهم، وطبعوها بطابع التعصب والعرقية، فابتعدت عن الحيادية وسقطت في المذهبية، وربما ساعدهم على ذلك حقب الضعف العربي.

هذه المغالطة التاريخية الواضحة، لطالما دعت الباحثين والدارسين إلى كشفها أو إلقاء الأضواء التي تسلط مزيدا من الكشف عن الحقيقة التاريخية التي تؤكد أن جذور مسقط ضاربة في أرضية التاريخ، ومن يريد المزيد

إزاء هذه القضية، يمكنه الرجوع إلى (موسوعة عمان في التاريخ، الفصل الأول من الباب الأول) وسيقف على كثير من علامات تأكيد الجذور مع (ياقوت الحموي في معجم البلدان) و(السيرافي في أخبار الصين والهند) ,(المقدسي في أحسن التقاسيم) و(الاصطخري في مسالك الممالك) و(الهمذاني في صفة جزيرة العرب وكتاب البلدان) و(الدمشقي في نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) و(والقلقشندي في صبح الأعشى).

وحين ترى عمان في عيون هؤلاء المؤرخين والجغرافيين والرحالة، تشاهد الدور الذي به أسهمت عمان على امتداد تاريخها الطويل في صنع الحضارة الإنسانية، وكان لأبنائها جهد غير مذكور في خدمة هذه الحضارة، فالموقع المتميز لهذا البلد الطيب، والروح النضالية التي حملت العمانيين إلى أقاصي الأرض، يجوبون البحار، ويمتطون الأخطار، فيلمسون بأيديهم، ويشاهدون بأعينهم، ويخالطون بقلوبهم وعقولهم، صنوفا من الحضارات، وضروبا من الثقافات، وأشكالا متباينة من التقاليد والعادات، كل ذلك كان له ولا شك أثر بارز في البناء الحضاري الذي شاده الآباء والأجداد، وصاغته الأجيال المتعاقبة تراثا حيا خالدا يجسد ملامح التاريخ وملامحه، ويعبر بصدق عن الثراء الباذخ للتجربة العمانية في عمق التاريخ. (خطب وكلمات جلالة السلطان قابوس بن سعيد، 18 نوفمبر 1994م).

أول فصول قصتها مع الأيام

تقف في قلب "روي" أكثر المناطق حيوية، وأكثرها اشتغالا بالحركة، فتجد نفسك محاطا بمجموعة من العمارات الضخمة، تشكل الحي التجاري، حيث البنوك الكبرى، وعلى رأسها البنك المركزي العماني. ثم هناك الشارع التجاري الذي هو شريان لعمليات البيع والشراء والأخذ والعطاء. ووسط هذا الزحام تجد عيونك يمتد بصرها إلى مسقط القديمة، حيث تستقطبك همسات العراقة.

من مسقط القديمة ذات الخمسة كيلومترات مربعة مساحة، تبدأ فصول قصة عمان من التاريخ والحضارة، التي كتبها العمانيون عبر العصور، وأنت مخير في الدخول إليها من إحدى بواباتها الثلاث الموزعة على سورها الذي يحتوي مسقط من الشرق والغرب والجنوب، ليترك البعد الرابع للبحر يكمل الدائرة. وفي داخل هذا السور ترتفع عيناك لتتوقف بعضا من الوقت، مأخوذا بتشكيلات قلعتي "الجلالي" و"الميراني" وهما قلعتان شامختان على خليج عمان، حاملتان لكثير من الرموز التاريخية، شاهدتان على ملامح القوة العمانية في صمودها، تستندان إلى خلفية من المباني التقليدية ذات المعاني غير التقليدية.

في هذه الأجواء ثمة 25 مدينة وقرية في ولاية مسقط تمنحها الاخضرار الطبيعي، المتقاطع مع ثلاثة أفلاج و 28 واديا وخمسة أخوار، و58 سيحا تشكل شرايين حياة وتتجلى أهميتها وسط 82 جبلا، وإطلالة خمس قلاع هي: (قلعة الرواية) التي أعيد بناؤها في عهد السيد سلطان بن أحمد البوسعيدي الذي تولى الحكم من 1207هـ، وقلعتي الصيرة الشرقية والغربية كتحصينات أمام قريتي الجلالي والميراني، بالإضافة إلى تسعة أبراج يعود أقدمها وهو (برج الجصة) إلى عهد اليعاربة، وبين مجموعة من البيوت الأثرية مثل (بيت السيد نادر بن فيصل) و(بيت جريزة) و(بيت فرنسا) (معجم أرض عمان، ص 50 وما بعدها، جامعة السلطان قابوس، مكتب مستشار جلالة السلطان لشئون التخطيط الاقتصادي، 2001م).

لابد أن تستوقفك الأنماط المعمارية (د. هلال بن علي الهنائي، الأنماط المعمارية في عمان، دورية عمان، 1997م) التي تأخذ شكل منخفض محاط بالجبال العالية، وهي ذات منفذ أحادي ناحية البحر، ونظرا لأنها كانت عاصمة للبلاد لفترات طويلة، فقد انعكس ذلك على نمط عمارتها التقليدية، ومن الناحية التاريخية فإن

الباحثين يقسمون النماذج النمطية فى مسقط إلى ثلاث مجموعات بحسب المستوى الاجتماعى للقاطنين، ويشمل ذلك منطقة العائلة المالكة ورجال الدولة ومنازل الطبقة المتوسطة ومنطقة سكن محدودي الدخل.

فأما المنطقة الأولى، وهي مسورة، فتقع عند منفذ البحر، حيث ينشط النسيم، وتتسم هذه المباني بالفخامة والبساطة، وعملا لاستمرار تلطيف الجو في هذه المنازل فإنها صممت لتحتفظ ببرودتها المكتسبة خلال الليل حتى منتصف النهار، حين يبدأ نسيم البحر في الهبوب بفاعلية، ومن هنا فقد كان نمط المنازل ذات الفناء الداخلي هو المناسب لتحقيق حالة الانسجام أو التكيف الحراري، إضافة إلى أن الرطوبة المنخفضة نسبيا في منطقة مسقط، تساعد على تحقيق هذا الهدف.

ويتكون المبنى السكني من طابقين أو ثلاثة، ومعظمها لها فناء داخلي، وفيها يكون الطابق الأرضي حاويا لعدد قليل من النوافذ (مع عدد كبير من فتحات التهوية المرتفعة) لضمان تأمين المبنى ومناعته. وتحوي الطوابق العليا عددا أكبر من النوافذ. ويعلو كلا منها فتحات التهوية التي تفيد في تسريب هواء الغرفة الساخن إلى الخارج، ليحل مكانه هواء بارد من فناء المنزل، وخلال الليل فإن فناء المنزل يفقد حرارته بالأشعة المتصاعدة إلى طبقات الجو العليا، بينما لا يصل إليه الهواء الساخن بفضل جدران الغرف المحيطة به. ونتيجة لذلك فإن الهواء البارد الذي يتكون في الفناء ينساب إلى الغرف المحيطة به طاردا الهواء الساخن من خلال فتحات التهوية العلوية. أما منازل محدودي الدخل فتتواجد متراصة وملاصقة لمنطقة المرتفعات الجبلية، وتبني عادة من جذوع النخل وتحظى بمزاياها فتسهم التيارات الهوائية التي تتكون بفعل التغيرات الدورية في درجة حرارة سطح الجبل في توفير نوع من الانتعاش الحراري.

حاضر على وسادة التاريخ

بعد قليل تجد نفسك مستلقيا على وسادة التاريخ والمعمار، وتلقي صعوبة لانتزاع نفسك من هذه الهالة وتلك الحالة. إذن لابد من إلقاء نظرة على كورنيش "مطرح". ومدينة مطرح هي في الأصل امتداد لمدينة مسقط، وكانت مركز التقاء القوافل البرية والسفن البحرية القادمة من مختلف أنحاء العالم. ولا تزال مطرح معززة بميناء السلطان قابوس، وعزيزة بأوراقها البحرية والاقتصادية.

هنا.. ميناء السلطان قابوس، أول ميناء عماني تردد فيه صوت جلالة السلطان في العشرين من نوفمبر عام 1974م لحظة الافتتاح التي ترمز إلى انفتاح عمان بما فيها ومن فيها، على العالم من حولها، ويكتب الحرف الأول من منظومة المواصلات والاتصالات بقوله: "لقد أدركنا سلفا أهمية المرحلة التي نحياها، وتفهمنا أهمية مكاننا في المنطقة، ومن هنا كان الاهتمام بإنشاء الموانئ من الأولويات التي وضعناها في الاعتبار" (خطب وكلمات جلالة السلطان قابوس بن سعيد 20 نوفمبر 1974م مسقط).

لماذا؟ يقول جلالة السلطان قابوس: "إذا كان على بلادنا أن تتحد وحدة حقيقية يجب أن يكون لدينا نظام عصري للمواصلات، وذلك اعتزازا بتاريخ عمان البحري الذي سطرته تلك الصواري الشامخة التي اندفعت في ذلك الماضي الموشي بالمجد من مختلف الموانئ العمانية" (نفس المرجع، 18، نوفمبر 1996م(.

وتتوالى منظومة الموانئ لتشكل لمسة عمانية في الجو، وموجة عمانية في البحر، وقدما عمانية في البر، ولتشغل مساحة واسعة من الإستراتيجية الشاملة التي تمكن بها جلالة السلطان عبر ثلاثة عقود من الزمن، لتتعاظم شواهدها وتتباين مشاهدها، وهي تهيئ المجتمع العماني لدخول القرن الجديد، بخطوات واثقة في ذاته،

وبتفعيل مستمر لقدراته، وباستثمار أمثل لإمكانية، على ضوء حقائق التاريخ والجغرافيا التي صارت تفعل وتتفاعل مع العصر بكل هذا الحجم.

مثل خان الخليلي والحميدية والملح

ولأن الشيء بالشيء يذكر، فإن ثمة صورة تاريخية رسمها ابن ماجد حين قال: "إن مسقط هي الميناء الأول لعمان وتأتي إليه السفن وتتمون فيه. وفي مسقط تباع الأقمشة والخضروات والزيوت والحبوب. ثم إن السفن حين تقصد مسقط تكون في مكان آمن من كل ربح. وفي مسقط المياه العذبة. وسكانها كرماء لطفاء يحبون الغرباء" (عمان في التاريخ، ص 300).

ويطول التذكر ونحن في الميناء، وأسترجع من الذاكرة صورة طريقة عمرها 245 سنة، لأحد وكلاء شركة ليفتنانت البريطانية رسمها عام 1755م حيث ذكر أن كميات هائلة من السلع والبضائع مكدسة على الطرق من غير رقابة أو حراسة عليها إذ لا توجد مستودعات تخزنها، ومع ذلك لم نسمع عن حادث سرقة أو سطو على هذه السلع أيا كان.

على بعد خطوات من الميناء، ترى هدير الحركة منبعثا من قلب مطرح، مصباح يضيء من هناك من (سوق الظلام) وقد جاءت تسميته من أن الظلام يغطي المكان حتى في عز الظهيرة، فالحواري ضيقة، والأزقة متلاصقة، والشوارع متعرجة، والسماء لا تكاد تبين.

السوق.. يمثل نموذجا للأسواق الشرقية الأصيلة، والملامح العربية القديمة، ويشكل أحد معالم الجاذبية السياحية، بل إن زيارتك تظل منقوصة، بل غير محسوبة، إذا ما لم تزر سوق مطرح، بل مطرح نفسها، خاصة

أن فيها بريق الذهب، ووهج الصاغة العمانية الذين يتميزون بالدقة والمهارة في صناعة المشغولات الذهبية والفضية، وصياغتها بحرفية و (حرفنة).

في السوق.. كل ما يخطر على بالك، ولكل المستويات، وإن كان المستوى الشعبي هو الخيط الذي يشد الحركة التي لا تعرف الهدوء. في السوق .. جاذبية خاصة، مصدرها المقتنيات والتحف والأشياء النادرة، التي يعز على أماكن أخرى أن توفرها، حتى المجمعات التجارية الحديثة المنتشرة في المدينة.

في السوق.. تعبق روائح العطور، والعطارة الشرقية، والمحلات مليئة بالعصي والخيزران والمشغولات، الأمر الذي يجعلك وكأنك في سوق الحميدية في دمشق، أو في خان الخليلي في القاهرة، أو في سوق الملح في الأردن، وكأنك عدت من جديد إلى أيام تقاليد التجار وأزقتهم ومراسم حياتهم وخلقهم السمح وشهبندر التجار، وقوافل السندباد تأتي محملة من الساحل لتصب عطاء رحلاته في دكاكين السوق، والحياة تصخب في أسواق ألف ليلة وليلة في كل عواصم عالمنا العريق، والضحكات والمغامرات والمساومات والربح والخسارة ,وحيل الشطار والعيارين , وقصص الحب وحيل العجائز، والطرقات المسقوفة وهي على ضيقها رحبة بعض الشيء عن مثيلاتها في أسواق المدن الأخرى، وهي تسير في تعرجات دائمة، تدور بك لتعود من حيث بدأت، أو ليتقاطع طريقك مع طريق سبق أن مررت به من قبل، والدكاكين مرتفعة عن الأرض تصل إلى أبوابها بصعود درجات قليلة، بعضه له واجهة زجاجية تخفي ما بداخله، وتعرض فقط ما يريد أصحابها أن يعلنوا عن وجوده، وبعضها مازال يحتفظ بطابعة القديم، كل شيء معروض إلى جانب كل شيء فوق المصاطب التي تلتصق بالجدران، أو المناضد الواطئة التي تحتل في نظام هندسي، فراغات الدكاكين، والابتسامات الحلوة تعلو الوجوه (في بلاد السندباد، ص 235).

في قائمة التراث الإنساني

وساعة أن تخرج من وجدان التاريخ وضجيج الحركة التي لا تهدأ ولا تعرف الهدوء ولا تريده، لا تكاد تغمض أهدابك على شاطئ البحر المتمدد على كورنيش مطرح، حتى تتخطفك نظرة جمالية إلى سور (اللواتيا) وقد ضمته منظمة اليونسكو إلى قائمة التراث العالمي، ومن قبلة (قلعة بهلاء) وهو يتميز بتشكيلاته المعمارية البديعية التي تنظم تشكيلة جمالية من اللون الأبيض، والمباني ذات الطرز المعمارية الشرقية، والأفنية الواسعة التي تتدلى عليها شرفات خشبية الأعمدة، في تناسق بديع، ونوافذ تتحلى بالمشغولات الخشبية الأنيقة بزخارفها الدقيقة.

يحتل هذا السور موقعا متميزا بإطلالة على شاطئ مطرح، تجاوره وتحيط به من ثلاث جهات أحياء سكنية تجارية قديمة تماثله في قدمها وفي أهميتها التاريخية، ومن ثم ينبع تفرده باعتباره يمثل نموذجا لتجمع سكاني متجانس يكمن في نسيجه العمراني، فمعظم مبانيه التي تبلغ 218 بناية، يغلب عليها الطابع العربي الإسلامي التقليدي (منها ما يقارب الثمانين بيتا تم تصفيتها كمبان تاريخية) كما تتخلله شبكة معقدة من طريق المشاة الضيقة المتعرجة، شأنه شأن جميع المخططات العمرانية الضاربة في القدم والتي تتميز بها المدن العربية والإسلامية القديمة، خاصة أن يشغل مساحة أرضية تقدر بـ 1600 متر مربع، وله واجهة واحدة رئيسية هي المواجهة لشاطئ مطرح، تطل مباشرة على الشارع البحري المزدوج الموازي للشاطئ.

والدخول إلى السور عبر بوابتين، واحدة أمامية والأخرى خلفية تقود كل منها إلى أزقة ضيقة، وسكك متعرجة، لا تسمح بمرور السيارات فيها وقد استحدث فيما بعد شارع واحد يربط بين البوابتين الرئيسيتين. وأهم ما يميز ذلك السور أو الحي هو مبانيه ذات الوجهات اللافتة للنظر، والتي تتجسد فيها جميع فنون العمارة

الإسلامية التقليدية من مشربيات خشبية ونوافذ وأبواب وزخارف ونقوش، الأمر الذي جعل وزارة التراث القومي والثقافة، توليه أهمية خاصة، بتوثيق المباني ذات القيمة التاريخية والمعمارية، حتى أنها وضعت ضوابط تحول دون المساس بها (تراث مسقط المعماري، ص 66، بلدية مسقط 1997م).

وتعكس الأنماط المعمارية في مدينة مطرح، مزيجا اجتماعيا فريدا، حيث استقر في المدينة كثير من التجار النازحين من أمكنة مختلفة، ومازالت المنطقة السكنية الخاصة بهم تحمل سماتها المتميزة، ومع تطلع أهل هذه المنطقة المزدحمة إلى توفير الخصوصية والأمان فى المسكن , فأنهم لم يتوانوا أيضا فى توفير أسباب التكيف الحراري مع البيئة الحارة المحيطة بهم، ولقد بنيت المساكن غالبا من طابقين، وترتفع من اثنين إلى ثلاثة أمتار عن سطح الأرض لتفادي نوبات فيضان مياه البحر القريب، ولتحقيق الخصوصية والأمان، والملاحظ كثرة عدد النوافذ الطويلة المرتفعة والتي تساعد على استقبال نسيم البحر، وتظهر الشرفات ذات الدعائم الخشبية الطرفين بكثرة في الطابق العلوي والتي قل أن توجد في غير هذه المنطقة عبر عمان، وتمتد هذه الشرفات عرضيا من مستوى الطابق الأول مواجهة البحر، ومغطاة بسقف مائل، وتحوي الحوائط التي تمتد منها هذه الشرفات، أبوابا زجاجية ونوافذ مستطيلة، واعتبرت هذه الشرفات كامتداد لأماكن المعيشة وشاع استخدامها بواسطة السكان كأماكن للجلوس أو النوم، ويلاحظ أن هذه الشرفات توفر ظلا للنوافذ التي تقع تحتها في الجدار. بعيدا عن الشاطئ تظهر الحاجة الملحة إلى التهوية بالعدد الكبير من الفتحات في المساكن، ومن الملاحظ أيضا أن كثيرا من المنازل القديمة في مطرح كانت قد بنيت من سعف وجريد النخيل (د. هلال بن علي الهنائي، الأنماط المعمارية في عمان، دورية عمان، 1997م) و(السور) بانسجامه مع (السوق) وتناغم الاثنين مع حركة (الميناء) وامتداد الثلاثة بالإطلالة على (الكورنيش). كل ذلك يشكل لوحة تداخلت فيها ألوان الطبيعة، وريشة الجغرافيا، وقلم التاريخ، وظلال الحاضر، وبثه الروح في ثناياها.

وتحدق في الفضاء فإذا بك تطيل النظر إلى الأعلى مع تشكيل (صرح ريام) الذي يتشابه إلى حد ما، مع برج القاهرة وأبراج الكويت، إلا أنه يبدو وكأنه منحوت على قمة الجبل، مثله مثل (قلعة نخل) المحمولة على الصخور، وتصعد إليه بدرج لتراه ينحني بحنو وكبرياء على (حديقة ريام) التي تشكل مع حديقة القرم الطبيعية وحديقة النسيم، ثلاث حدائق غير تقليدية في مسقط بل في كل جنبات عمان، وكل واحدة تمثل رئة طبيعية ونقية للمجتمع والناس.

أما (حديقة ريام)، فهي الهدية الثمينة التي تلقاها الناس في مسقط في غمرة أضواء العيد الوطني الخامس عشر 1985م وتمتد على مساحة 73,584 مترا مربعا، وبلغت تكلفتها أكثر من مليون ريال عماني. والمثير للتكوين الجمالي للحديقة، أنه يتشكل في قسمين متجاورين، أحدهما أكثر ارتفاعا من الآخر، يربطهما جسر خرساني يسهل الحركة للمشاة، عند منتصف بحيرة اصطناعية ذات نافورتين تتماوج فيهما الألوان، وتتحاور الأضواء في لياليها، وتنبعث أنغام الموسيقى في ثناياها، وحتى التشكيلات الجمالية للملاهي ووسائل الترفية والتسلية، تستلهم الملامح البحرية، وحين تقف على ربوة من روابي الحديقة، تتشكل أمامك على مرمى البصر، مرايا للسفن التي ترسو في ميناء قابوس.

وفي سياق الخضرة والماء والجمال الطبيعي والحسن الصناعي والحس الاجتماعي، نتحرك قليلا إلى منطقة القرم، لنرى مشهدين: الأول قمة في التوهج والحركة، والآخر قمة في الهدوء والسكون. فأما التي هي متوهجة، فهي منطقة القرم التجارية، قلب مسقط النابض بالحركة العصرية، منطقة تتسم بالحركة الدائبة والدائمة ليل نهار، حيث المراكز التسويقية، والمجمعات التجارية والسياحية والترفيهية، بتشكيلاتها الجمالية الجامعة بين العراقة والحداثة في الشكل والمضمون، فيها محبو التسوق ورواده من كل المستويات، ومن كل الجنسيات، وفيها من كل

سلعة ومنتج محلي وعالمي أنواع وأشكال، كشريحة من الشرائح التجارية، تتجاور مع الشرائح والقطاعات الأخرى، يتعانق اخضرار الأشجار الكثيفة مع ذبذبات وانفعالات الإلكترونيات، وتتلون مع اصفرار واحمرار الأضواء، وتتمازج مع انبعاثات الإبداع الشعبي في الأماكن التسويقية (المودرن) فتتناغم الإيقاعات، وتتناسق الأنغام في منظومة تؤكد على قيمة الجمال في الحياة ومتعة الفن للأرواح.

وأما التي هي ساكنة، فهي تلك المنطقة التي تنساب على مرتفعات القرم حيث الفلل المستلقية، والتي تأبى الارتفاع ولا تتقبله، ولا تعترف به، ولا ينبغي، شأنها في ذلك شأن مدينة السلطان قابوس. وفي هذه المرتفعات تمتد حديقة القرم الطبيعية على مساحة 1,651,449 مترا مربعا وهي أكبر حديقة في سلطنة عمان، تتواجد في منطقة طبيعية تتمايز تضاريسها بالهضاب والمسطحات الشاسعة، الممدودة والمتمددة في المساحة ما بين فندقي (انتركونتننتال مسقط) و(كروان بلازا) وهي منطقة أثرية الأصل، أكدت الاكتشافات الأثرية أنها تعود في تاريخها إلى العصر الحجري، وتحتفظ بعدد هائل ونادر من النباتات الطبيعية والأصداف المائية، ولذلك فهي في جزء منها، تعتبر مختبرا للباحثين في التاريخ الطبيعي.

وقد استثمرت (بلدية مسقط) جماليات الحديقة وطبيعتها، فأنشأت بحيرة اصطناعية تحتضن مجموعة من الجزر الصغيرة، وشكلت نافورة ترتفع مياهها المتراقصة ثلاثين مترا، وتم تسوير تلك المساحة الشاسعة التي تنبت فيها الأشجار الطبيعية، حيث تتكاثر أنواع مختلفة من الحياة البرية والمائية وتحط فيها الطيور المهاجرة، واستزرعت أحد عشر ألف شجرة وحوالي 400,000 متر مربع من المسطحات الخضراء التي تكسو المنطقة بالاخضرار والازدهار خاصة مع ساحة (اليوبيل الفضي) التي تمثل لمسه جمالية عصرية، أو قل هي لوحة طبيعية، تتمايل فيها الألوان، وتتمايس فيها مفردات الجمال والتجميل، لتمتع العيون وتسر الناظرين.

أما حديقة النسيم العامة فتنبع قيمتها من أنها همزة وصل بين مسقط العاصمة وبقية ولايات السلطنة، انطلاقا من ولاية السيب التي تتسم بهدوء وسكينة، وحدائق دائمة الخضرة، وشواطئ ممدودة، ومناخ بديع، وهي في الأصل كانت مزرعة خاصة بجلالة السلطان قابوس، وقد أقر بأن تكون هدية من جلالته إلى الشعب العماني، لإشاعة الجمال في جنبات البلاد. وهي تبعد عن مسقط حوالي 60 كيلومترا وتبلغ مساحتها 750,000 متر مربع، ومجهزة تجهيزا خاصا لاستقبال العائلات والأفراد، ولها خصوصية فريدة في شكلها ومضمونها، بمساحات شاسعة من المسطحات الخضراء المخططة، وفق أحدث أساليب البستنة، كما تضم بحيرة اصطناعية، ومجموعة من الملاعب الرياضية ومدينة للألعاب الترفيهية الإلكترونية (يوسف الشاروني، ملامح عمانية، ص 204، رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1990م).

وقال البحر

من هنا. من السواحل العمانية الممتدة، أبحر الإنسان العماني على صهوات الأمواج من قديم الزمان، رائدا يربط أجزاء الإنسانية، ويصل الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب، ويتبادل الخبرات والخيرات مع حضارات العالم.

من هنا.. انطلق الشراع العماني يجوب بحار الدنيا ومحيطاتها، حاملا منتجاته، ومحملا بإبداعاته، ليتواصل مع الآخر، عائدا بالطيبات من البر والبحر في تبادلات تجارية منتظمة، جعلت من عمان واحدة من المحطات والموانئ العالمية.

هنا على الشواطئ العمانية الممدودة، تشكلت الموجات الأولى للحضارة العمانية، على أكتاف وسواعد البحار العماني، فالبحر مكون أساسي من مكونات الإنسان العماني، الذي تعلم من البحر حب المغامرة

واستلهم روح المثابرة، وعلم على البحر مؤثرات وجودة وحياته، ونقش على صفحات البحر أمجاده البحرية العسكرية، وجعل من البحر رمزا لقوة عمان وهيبتها وشموخها عبر شواهد التاريخ ومشاهد الجغرافيا.

حوارات رجال البحر العمانيين مع أمواج البحار، حوارات طويلة، والعلاقة القوية والعفية بينهم وبين كنوز البحر وثرواته، واستخراج طيباته، مشحونة بالذكريات، ومسكونة بالمغامرات، وعلى شواطئ مسقط يحدثنا البحر كثيرا، بل يحلو أمام هدوء صفحته، تجاذب أطراف الحديث. فالبحر "مصدر من مصادر الخيال الشعبي، ومجال فسيح لبناء الحكايات والقصص والروايات، ودنيا خصبة من الإيحاء للروائي والقصاص يغامران مع أبطالهما فيها، بحثا عن الكنز والثروات وبحثا عن الربح والتجارة، وبحثا عن المعرفة والتجربة والمتعة والإثارة. ولكننا في كل دراساتنا عن الشخصية العربية ومكوناتها أغفلنا البحر وروح المغامرة والإصرار والإثارة والقدرة على الخيال والابتكار، والطاقة على الصبر، وتطوير الممكن لبلوغ المراد وتحويل الحلم إلى حقيقة وواقع. ومن قديم جدا و السفن العربية تمخر البحار والخلجان للصيد والتجارة والأسفار ومن قديم جدا واللبان والبخور والند والصندل من منتجات الجنوب العربي ومن مستوردات السفن العربية عبر البحار السبعة، تغزو معابد أوروبا والشرق، وتعطر الحضارة الأشورية والبابلية والفرعونية والإغريقية والرومانية. ومن قديم جدا وحرير الصين وأخشاب الهند ولبان عمان ولآلئ الخليج وجواهر سيلان تسهم في صنع مظاهر الحضارة والتقدم في العالم القديم. ونحن نغفل هذه المشاركة حين نغفل دور العرب في قهر البحار، وحين نغفل القراءة النقدية الصحيحة لعالم البحار في ألف ليلة وليلة، وفي عالم البحر العربي تمثل مغامرات سندباد وحكايات البحر في الليالي، عطاءه الفني والأدبي والشعبي على السواء، تفتح الدنيا كاملة في تاريخ العرب مع البحر منذ أعماق التاريخ وإلى اليوم، وامتلأت هذه الدنيا بالمدن البحرية ذات التاريخ العريق، وبالصناعات البحرية وأولها صناعة السفن الضاربة في عمق سحيق من تاريخ البشرية، وقصة الإصرار العربي على قهر البحر وفتح الطريق أمام الوجود المترابط

للإنسان منذ البداية الأولى للمعنى الحضاري للإنسان، استرجع صور الثغور والقلاع والسفن وطرق التجارة وطرق الإبحار، فإذا أنت أمام سفن الليالي وسفن سندباد، وإذا أنت أمام الطرق التي سلكها سندباد في رحلاته، وإذا أنت أمام الجزر والبحار التي قدمت لألف ليلة وليلة عطاء البحر السحري في إبداعه الفني". (في بلاد السندباد، ص11)

وللبحر وجه آخر

ولأن البحر أحد مفاتيح الشخصية العمانية، فقد نال اهتماما غير تقليدي، حيث تمتد شواطئ هنا وهناك 1700 كيلومتر، لذلك أضفت السلطنة لمسات جمالية على شواطئ مسقط المستلقية على الخليج. وللبحر آثاره في دوائر التكوين، وأسراره تتجاوز الجمال ومشتقاته، وتعلو على الاقتصاد وتوابعه، ونصغي إلى صوت التاريخ وهو يروي على موجاته كيف تشكلت البحرية العمانية، بأكثر من حقيقة يوردها العلماء والباحثون في أن قوة عمان تنبع بالدرجة الأولى من قوة بحريتها، ومن تماسك جبهتها الداخلية، فبحريتها تقوى بقوة الجبهة الداخلية، وتضعف بضعفها أيضا. وأن البحرية العمانية شكلت عبر تاريخ عمان المديد، اليد الطولى والقوية لها، وكانت أداة اقتصادية هامة، أسهمت في ازدهار عمان الاقتصادي سواء عن طريق التبادل التجاري الداخلي والخارجي والنقل، أو صيد الأسماك ومحار اللؤلؤ. وكان سكان الساحل العماني أكثر اتصالا مع الشعوب الأخرى، مما ساعدهم على الأخذ والعطاء مع هذه الشعوب على أساس إنساني منفتح. كما

حرص العمانيون على استقلالهم والدفاع عنه بكل ما يملكون، فاتسم شعب عمان بصلابة وشجاعة نادرتين مكنتاه من التصدي للغزاة من جهة، ومن تحمل المصاعب وركوب الأخطار وغوارب البحار بحثا عن الرزق، فنقلوا معهم قديما الحضارة العربية، والدين الإسلامي إلى أصقاع لم تعرف الحضارة الراقية والإسلام من قبل، سواء في أفريقيا أو آسيا، وبقي العمانيون لهم القدح المعلا في سيادة البحار المحيطة بهم وبخاصة المحيط الهندي إلى مطلع العصور الحديثة، وحققوا بإمكاناتهم الصناعية المتواضعة منجزات كبيرة في مجال بناء السفن التي أرادوها للأغراض المختلفة، بل أسهموا في تطوير العلوم البحرية، وبرز منهم قادة أفذاذ لأساطيل بحرية عمانية وعربية وغيرها قديما وحديثا. وباختصار شديد فإن تاريخ بحرية عمان يكاد يكون تاريخ عمان السياسي والاقتصادي. (عمان في التاريخ، ص 353)

أجنحة تصفق بالجمال وبالثقافة

إذا كانت الفنون والآداب هي عناوين حضارية للشعوب فإن الاهتمام العماني بهذه العناوين وممارستها على صعيد الواقع، هو اهتمام ملحوظ ومشهود له، وتكاد سلطنة عمان منذ بداية تأسيسها المعاصر، تكون الدولة العربية الوحيدة التي تخصص وزارة كاملة للتراث، تتحمل الأمانة الحضارية للشعب العماني، لتتجاور هويته مع الشعوب العربية الشقيقة، ومع شعوب العالم ككل.

كان على السلطنة وهي تهب من سكونها في عام 1970م أن لا تقفز إلى الحاضر والعصر الحديث بسرعة، فتحدث فجوة بين القديم والجديد، ومن ثم حرصت الإستراتيجية العمانية على ابتعاث القيم الأصيلة من الماضي، وإزالة غبار الزمان والإهمال عن التراث العماني، القابع في المخطوطات، وقد قدمتها السلطنة إلى المكتبة العربية والعالمية مع الآثار التاريخية التي لم يستطع الزمن أن يواريها النسيان كثيرا، ومع المعالم الحضارية المنتشرة هنا وهناك، خاصة في مسقط وفي ظفار وغيرهما من المدن العمانية التي تجادل الزمن.

ذات مرة التقيت بالفنان الأمريكي، الإيراني الأصل (محمود فارشيحان) أثناء زيارته لمسقط، وهو الذي طاف بفرشاته وعدساته وعيونه وألوانه حول العالم، قال لي: هنا تتهادي موجات الفن على شاطئ الحياة وكل مكان تنقلت فيه أحسست باللمسات الفنية الرقيقة، ولابد أن المصدر الجميل لكل هذا الفن والتشكيلات الجمالية، ينبع من القدوة، ويستلهم المثال من جلالة السلطان قابوس بن سعيد، الذي يتميز بحبه للفنون وتذوقها، وبالتالي ينعكس هذا الحب وذلك التذوق على أسلوب الحياة في عمان، ولقد وجدت أحاسيس الناس هنا مرهفة بشكل أدهشني، سواء في لقاءاتي معهم، وفي زياراتي لكثير من الأماكن والشوارع والدورات والمباني، وفي الوجوه والأزياء والسلوكيات، وفي كل شيء رأيته أبصرت فيه فنا وجمالا وبهاء" (مجلة العمانية، العدد 38 أغسطس 1993) وتنتشر في مسقط مجموعة من

المؤسسات الفنية التي تخدم الفن والثقافة والجمال، مثل النادي الثقافي والمنتدى الأدبي ونادي الصحافة ومرسم الشباب وجمعية الفنون التشكيلية ومسرح المدينة إلى جانب المعارض الفنية والمهرجانات الثقافية.

الناس في عمان

الناس في عمان طيبون، يميلون إلى الاتزان ويتسمون بالهدوء، لا يؤمنون بالعنف ولا يتخذون سبيلا، يؤثرون الوداعة، ويسلكون الضيافة بكرمها وحسنها عنوانا دائما لشخصية الإنسان في عمان. في هذا السياق يؤكد السلطان قابوس بن سعيد:

"إن التطرف مهما كانت مسمياته، والتعصب مهما كانت أشكاله، والتحزب مهما كانت دوافعه ومنطلقاته، نباتات كريهة سامة، ترفضها التربة العمانية الطيبة التي لا تنبت إلا طيبا" (خطب وكلمات جلالة السلطان قابوس بن سعيد، 18 نوفمبر 1994م).

وجذور مثل هذه القيم النبيلة، استقطبت كثيرا من الرحالة والمستكشفين الأجانب، خذ مثلا ويندل فيلييس في كتابه المعروف رحلة في عمان، يقول: المجتمع العماني مجتمع مسلم يعتقد الفرد فيه أنه من الإثم أن يشير إلى المستقبل دون أن يذكر عبارة "إن شاء الله". وهذا دليل على أن الزمن لم يؤثر على القيم المتوارثة الموجودة، والعماني مسلم فخور معتز بنفسه، مستقل بذاته، ذو نفس قانعة راضية، هادئ الطبع، وعمان دولة لطيفة لها وقع دافئ على النفس.

وملمح آخر يشرحه الرحالة "سير جون ماند": إن وجود مثل هذه الدولة العربية كدولة مكتملة البنيان فوق الصحراء، حيث تصعب المعيشة، هو أوضح مثال للذكاء والفطنة. وبينما يقول الكابتن (الكسندر هاملتون) إن مسقط قوية جدا بطبيعتها، وغنية بفنها وسكانها طيبون، يبغضون التفاخر والتباهي، نرى هذه الصورة التي رسمها (ج. س. باكنجهام) حيث وجد أن أهل مسقط أثناء زيارته لها عام 1816م أنظف وأكثر اعتناء بالملبس، وأكثر كياسة من كل العرب الذين رأيتهم في حياتي، وشعرت فيهم بالثقة والعزيمة القوية والاحترام، ويسجل الرحالة (هاريسون) في رحلته إلى الجزية العربية، الحقيقة التي تأكدت منها هناك أن العماني يستمتع بالعمل، وهو مهذب يتصف بضبط النفس (مجلة العربي، العدد 319، يونيو 1985م، الكويت).

الانسجام مع النفس والآخرين

الروح المهيمن على المجتمع العماني روح واحد يستمد قوته من مصداقية الاتجاه بالمجتمع إلى الأفضل، مواكبة للعصر ومواجهة إذا لزم الأمر، لما يحول دون تحقيق الهدف العام. ثمة منظومة اجتماعية تنضوي بكافة شرائحها تحت لواء هذا الروح، طوعا وطواعية وعن طيب خاطر، سعيا إلى التطور المستمر والنهوض المتواصل والتقدم الدائم. ولعل السر يكمن في الإضاءة الساطعة التي يستضيء بها المجتمع منذ إشراقته الحديثة، والتي تدثر الناس في عمان باليقين: "الجميع سواسية" شكلا وموضوعا، وقد قننها النظام الأساسي للدولة، إذ ينص على أن "المواطنين جميعهم سواسية

أمام القانون، وهم متساوون في حقوق والواجبات العامة، ولا تميز بينهم في ذلك بحسب الجنس أو الأصل أو اللون أو اللغة أو الدين أو المذهب أو الموطن أو المركز الاجتماعي" (النظام الأساسي للدولة، ص14، المادة 17).

" من الناحية المذهبية، ترى في المسجد الواحد أصحاب المذهب السني مع المذهب الأباضي مع المذهب الشيعي، كل في فلك التوحيد يسبحون ويسبحون فحرية القيام بالشعائر الدينية طبقا للعادات المرعية مصونة على ألا يخل ذلك بالنظام العام أو ينافي الآداب" (المرجع السابق، ص14) حتى في الشارع، ترى المساواة، لا فرق بين سيارة يقودها وزير وأخرى يقودها أي شخص من أي مستوى، ومن ناحية أية جنسية، المخالف لابد أن يغرم. ورجل المرور وأجهزة الرادار وجهان لعملة واحدة، حتى في الأزياء الرجالية، مساواة جمالية وتجميلية في الدشاشة والمصر والكمة والخنجة، واللون الأبيض سيد الألوان.

الناس في عمان منسجمون مع أنفسهم، ومع الآخرين. فأما انسجامهم مع أنفسهم، فإنه نابع من إحساسهم القوي بذواتهم، انطلاقا من قوة حاضرهم، ومن استنادهم إلى جدارهم الحضاري، الذي لا ينقص ولا يزيد، هذا الشعور يجعلهم يتحركون في الحياة حركة مطمئنة، وخطوة واثقة. وأينما وجهت وجهك في جنبات مسقط – مثلا – تبرق في عينيك عناوين المتاحف التي تنتشر هنا وهناك، معلنة صورة الماضي المتداخلة مع مرايا الحاضر، وكلاهما يجلي ملامح الذات، ويجلي معالم الشخصية، وينير الطريق أكثر أمام ابن اليوم، كمصابيح متوهجة الضياء.

وأما انسجامهم مع الآخرين، فيتجلى في دفء الألفة، وصدق المودة، وتوحد الظاهر في الباطن، وحلول الشكل في المضمون، وهم في ذلك مثل حبة اللؤلؤ في محارة البحر، تتجلى ساعة أن تشعر بالأمان، فحين تقف متأملا في منطقة مثل الحي التجاري في "روي" أو في منطقة القرم التجارية، سترى كل الجنسيات، عربية تتمايز بتدفق الدم العربي من مختلف الشرايين، وشرقية على تنوع ألوانها وتباين أشكالها ,وغربية بتعدد دولها وشعوبها .كل له دور يلعبه على مسرح الحياة، وكل له مهمة ينهض بها بدراية، وكل يتعامل حسب مقتضيات الحركة بمهارة، فلا عشوائية ولا عبثية ولا فوضوية، إنما كل شيء بحسبان والكل يتداخل في سياق منظومة علمية، لها وسائلها المتباينة، ولها غايتها الذاتية والموضوعية، ولها مرتكزاتها ومنحنياتها، فالكل يعيش ويتعايش في واحة الأمن والأمان، ويفعل ويتفاعل على شاطئ الاستقرار والاستمرار، ويتقابل ليتكامل في منظومة النور والخير والجمال، التي تصوغها الإدارة العمانية على هدي وبينة، وتسلكها السيادة العمانية بالرحمة والمرحمة، والعقل الذي هو الروح المهيمن بتجلياته في الماوراء، ويتجلى النظام الأساسي للدولة، بنص جميل ومنفتح ومحدد، إذ يقول: "يتمتع كل أجنبي موجود في السلطنة بصفة قانونية بحماية شخصه وأملاكه طبقا للقانون وعليه مراعاة قيم المجتمع واحترام تقاليده ومشاعره" (نفس المرجع، ص81).

ما قبل إسدال الستار

هذه مسقط المدينة قلب مسقط المحافظة، التي تحتوي ست ولايات تتداخل، ولكل ولاية ملمح خاص، ف (مسقط) العاصمة ومركز الحكم، و(مطرح) مدينة المال والاستثمار والتجارة، و(بورش) ابنة التاريخ الممتد إلى الألف الثانية قبل الميلاد، و(قريات) الخضراء دائما، ثم (السيب) مدينة الأناقة والثغر العالي، والتي تشكل أول مشهد تقع عليه العيون وآخر مشهد يسكن في جفونها حتى حين.

ويطول الطريق.. ويعبق الرحيق.. وتتطاول الأشواق.. وتتطاير الأوراق.. وتمتد المسافات.. وتتعدد المساحات.. وتتجلى المكاشفات.. وتتدلى المطارحات في عمان، الرابضة علة خطوط النور، الراكضة نحو الطموح بالإقلاع المستمر نحو المستقبل، الناهضة بالحياة أملا وعلما وحلما، النابضة بالحياة نبضا لا يعرف إلا الاتزان والتوازن والتوازي.

د. مجدى العفيفي